سعد زغلول

إرادة قارعت الإستعمار

- حفظ القرآن فى «إبيانه» ودخل الأزهر ليطالب بالإصلاح.
- قرأ الأفغانى مقالة لسعد، فقال: فاتحة خير لمصر أن يكتب هذا الكلام غلام.
- ارتقى بالمحاماة بفصاحته واستقامته من «الفهلوة» إلى مهنة محترمة.
- وهب نفسه لمصر وقضايا الوطن.
- كافح أعواما طوالاً لتكون «مصر للمصريين».
- عندما نفاه الإنجليز اندلعت ثورة ١٩١٩.
- شكل أول وزارة شعبية برلمانية عام ١٩٢٤.
- انتخب رئيساً لمجلس النواب سنة ١٩٢٥

حب الناس لإنسان لا يأتى بقرار تصدره جهة معينة، أو بتعليمات من شخص ذى نفوذ وقوة.

فالحب من القلب، والقلب لا يخضع عنوة، بل يسلم قياده لمن أحبهم طواعية.

وعندما أحب المصريون «سعد زغلول» فقد فعلوا ذلك بعد أن أدركوا بالوقائع الملموسة، ما طبع قلوبهم بالفطرة من أن الرجل وهب نفسه لمصر ولقضايا الوطن، لا يدفعه غرض سوى حب الوطن.

ولم يبن سعد زغلول زعامته وحب الناس له فى يوم وليلة، بل كافح أعوامًا طوالاً فى سبيل نشر دعوته القائلة إن «مصر للمصريين»، حتى صارت تلك الدعوة شعاراً يرفع، وهدفًا يكافح المصريون لتحقيقه.

ولد سعد إبراهيم زغلول، فى قرية «إبيانه» فى مركز فوة فى محافظة الغربية، فى الأول من شهر يونيو (حزيران) عام ١٨٦٠، كما دون هو بنفسه فى البيانات الشخصية التى قدمها لمدرسة الحقوق الفرنسية، التى نال منها شهادته فى القانون.

وهو ينتمى لأسرة تتمتع بالثراء النسبى، والزعامة الاجتماعية، وسمى «سعد» على اسم جده الأكبر، الذى وفد إلى القرية، وكون فيها أسرته العريقة، ووالده هو الشيخ إبراهيم زغلول شيخ القرية، ووالدته هى «مريم بركات» ابنة الشيخ عبده بركات، أحد كبار ملاك الأراضى الزراعية. وكانت مريم الزوجة الثانية لوالد سعد، الذى أنجبت منه بنتًا واحدة هى «ستهم» ثم «سعد»، وفتحى، وفرج الله، وقد توفى الأخير وهو حدث، وكان لسعد من أبيه أخوة كبار، هم «شلبى، والشناوى، وأحمد، ومحمد، وعبد الرحمن وفرحانة»، وكان إخوته

من أبيه يعملون جميعًا فى الزراعة، إلا الشناوى، الذى شغل منصب العمدة فى قريته.

لم يكد سعد يبلغ الثالثة من عمره حتى انتقل والده الشيخ إبراهيم زغلول إلى جوار ربه، فاهتم به أخوه «الشناوى أفندى» وأدخله كتاب القرية لتعلم مبادئ القراءة والكتابة ويحفظ القرآن على يد أحمد زيدان شيخ الكُتَّاب.

وكان سعد الفتى النحيل الطويل بالنسبة لأقرانه ممن فى مثل سنه ذكيًا يتمتع بذاكرة حافظة، حتى فاق أقرانه بمراحل فى تعلم القراء والكتابة، وحِفْظُ القرآن الكريم، وبقدر اجتهاده فى حفظ القرآن الكريم كان ابتعاده عن اللعب مع أقرانه، وإذا حدث ولعب معهم كان لعبه سيئًا، وتسبب فى هزيمة الفريق الذى يلعب معه حتى أطلقوا عليه لفظ «الخيبة».

الأزهرى المتمرد

ورغم تفوق سعد إلا أنه لم يستثن من الضرب على الأيدى والأقدام بالعصا من شيخ الكُتاب، ربما لعناده الشديد، حيث كانت والدته مريم زغلول، عندما يغضبها عناده فى البيت، تعهد إلى شيخ الكُتاب بتأديبه، فينهال بالعصا على يدى وقدمى سعد، عظة له، وعبرة لغيره من زملائه.

وعندما انتهى سعد من حفظ القرآن الكريم، أرسله شقيقه الشناوى إلى بلدة دسوق ليجود القرآن، ومنها إلى الأزهر الشريف ليتعلم العلوم الدينية والشرعية، وكتب عن تلك الفترة من حياة سعد زغلول الكاتب الراحل أحمد بهاء الدين: «وفى الأزهر كان سعد يلبس العمامة والجبة والقفطان، الزى الأزهرى المعروف، ويسكن فى (ربع) عتيق مع الآخرين، يتسكع فى الحوارى، ويعيش أيامًا على الطعمية والفول النابت، ويتربع عند عمود فى الأزهر يستمع، ولكنه يبدأ فى (المطالبة) فيؤلف جمعية لإصلاح الأزهر، ويتسلل فى الليل إلى صحن الجامع ليعلق على أعمدته المنشورات التى تطالب بالإصلاح».

وارتبط فى تلك الفترة من حياته بالشيخ محمد عبده، ورافقه إلى مجالس

زعيم الثائرين آنذاك «جمال الدين الأفغانى». وبدأ سعد ينشر مقالاته فى الصحف داعيًا إلى الإصلاح الاجتماعى، وقرأ الأفغانى بحثًا عن الحرية، فقال «هذا البحث فاتحة خير لمصر أن يكتب مثل هذا الكلام غلام لم يبلغ سن الشباب».

واختير الشيخ محمد عبده رئيسًا لتحرير صحيفة «الوقائع المصرية» مطلع شهر أكتوبر ١٨٨٠، فطلب من سعد أن يساعده فى تحريرها، وترك سعد الدراسة فى الأزهر، وتفرغ للعمل فى الجريدة، واستمر فى عمله ذاك حتى شهر مايو سنة ١٨٨٢ ثم ترك العمل فى الجريدة ليعمل فى وظيفة معاون فى وزارة الداخلية لكنه فصل من عمله الجديد لاتهامه بالانتماء إلى محمد عبده نصير ثورة عرابى، والانتماء إلى جمعية سرية تدعى «جمعية الانتقام» وبقى فى السجن مدة تزيد على ثلاثة أشهر.

المحامى الفصيح

لم يجد سعد بدًا من العمل، فبدأ عام ١٨٨٤ ممارسة مهنة المحاماة، وكانت هذه المهنة، كما يقول مؤرخو تلك الفترة، مهنة لا يحيط بها الاحترام، وكان يمارسها فقط من يجيد الفصاحة والبلاغة، ولو بدون مؤهل، لكن «سعد» نهج فيها نهجًا من الاستقامة ارتفع بها وبنفسه إلى مستوى المهن العظيمة ذات الاعتبار.

وذاع صيته فى هذه المهنة وكان القضاة، والمستشارون الذين ترافع أمامهم يعجبون ببلاغته، وفصاحته، وقدرته على تبيان الحق فى أية قضية يترافع فيها. ولم يكن يقبل إلا القضايا التى يعتقد أن أصحابها لهم الحق فى رفعها، وأن لهم حقوقًا ضائعة يجب أن يحصلوا عليها.

وكان يخدم موكليه أحيانًا بلا أجر، وكانت براعته تدهش القضاة، وتعلن أن دراسة القانون يمكن أن تفرز قانونيًا عظيمًا من غير مؤهل، ولكنه ثقف نفسه الثقافة القانونية الواجبة وكان يرفع شعار «ما ضاع حق وراءه مطالب».

وأرادت الحكومة أن تستفيد من هذه الشخصية النادرة، فعينته سنة ١٨٩٢ بعد ثمانى سنوات من العمل فى المحاماة بوظيفة نائب قاض فى محكمة الاستئناف، فقبلها على ضآلة مرتبها بالقياس إلى ما كان يربحه من المحاماة، وكان سعد زغلول بذلك، أول محام تسند إليه وظيفة القضاء، فابتهج المحامون كما ابتهج القضاة وأقاموا له حفلاً كبيرًا شهده عظماء مصر وكبار مفكريها.

وما لبث سعد أن رقى سنة ١٨٩٣ إلى منصب مستشار فى محكمة الاستئناف العليا، وحصل سنة ١٨٩٧ أثناء عمله كمستشار، على شهادة ليسانس الحقوق، من فرنسا، وكان لإقدام سعد زغلول على الدراسة من جديد ليحصل على مؤهله فى القانون وهو مستشار، قصة طريفة تدل على إصراره وقوة إرادته.

سعد وبوند

كان رئيس المحكمة التى يعمل سعد مستشارًا فيها إنكليزيًا يدعى «بوند باشا» وفى سياق المناقشة والمداولة حول إحدى القضايا، أدلى سعد برأى قانونى، تشريعى على جانب من الأهمية والخطورة، فالتفت إليه رئيس المحكمة قائلاً له: «إن هذا الرأى خليق بأن يبدر عن قاسم أمين أو غيره من

سيئ الخط حسن البديهة

عرف عن الشاعر حافظ إبراهيم أنه مولع بأكل الكمثرى، ولا يميل إلى التفاح وكانت مائدة سعد غاصة ذات يوم بالزائرين، ويبدو أنهم كانوا مثل حافظ مولعين بالكمثرى، فلما انتهوا من الطعام وجىء لهم بالفاكهة أقبلوا كلهم على أطباق الكمثرى يلتهمونها نابذين أطباق التفاح، فأسقط فى يد حافظ إبراهيم، وبلغ منه اليأس فى الحصول على حبة من ثمار الكمثرى، فالتفت إلى سعد قائلا: «ما تخطب لهم يا باشا فى مزايا التفاح». فرد سعد على الفور: «ولماذا لا تلقى أنت عليهم قصيدة من قصائدك فى هجاء الكمثرى ومزايا التفاح».

وكان خط سعد من الخطوط التى يصعب على المرء قراءتها مالم يكن متمرنا عليها، وكان يعترف لأصدقائه وأعوانه برداءة خطه، وكلما أشار أحد إلى الصعوبة التى يجدها مساعدوه فى فك طلاسم خطوطه يغرق فى الضحك قائلا - «ولكن الحمد لله أن خط الجزيرى، «سكرتيره الخاص»، أحسن من خطى.. قليلاً».

حملة الليسانس»، فقاطعه سعد قائلاً: «يعنى ما ينفعش إلا رأى حامل الليسانس؟».

فقال «بوند باشا»: طبعًا.

وسكت سعد، ولم يخطر لأحد أنه قرر تلك اللحظة بالتحديد، تعلم اللغة الفرنسية، ونيل شهادة «الليسانس» فى الحقوق من عاصمة فرنسا ذاتها، على الرغم من كونه على مشارف الأربعين من عمره، وظل سعد يتعلم اللغة الفرنسية والقانون فى وقت واحد، ويسافر كل عام ليؤدى الامتحان أمام لجان الحكومة الفرنسية، حتى فاز بالليسانس فى التاسع من شهر يوليو سنة ١٨٩٧ فى نصف المدةالمقررة لدراسة القانون حتى تتساوى الرؤوس شكلاً وموضوعًا.

حادث دنشواى

وقع عام ١٩٠٦ حادث «دنشواى» الذى هز مصر، حيث نصب الإنكليز أربع مشانق فى قرية «دنشواى» يساق إليها كل ربع ساعة فلاح، يلتف الحبل حول رقبته، وبين كل عمليتى شنق يتوالى جلد الفلاحين بالسياط حتى تسيل دماؤهم أمام الأهالى الذين وقفوا مكتوفى الأيدى. أمام بنادق ومدافع المحتل الإنكليزى.

وأصبحت «دنشواى» لوحة قاسية تعبر عن حالة مصر كلها، أمة مسلوبة الإرادة تُلهب ظهرها العارى سياط الاحتلال وتنهش لحمها المتمزق غربان المصالح الاقتصادية الأجنبية.

وعُين سعد زغلول ذلك العام، وزيراً للمعارف كنوع من امتصاص الغضب الشعبى ضد المحتل، ولأن سعد كان زعيما شعبيًا محبوبًا، وقبل سعد منصبه الوزارى ليس حُبًا فى المنصب كما يؤكدالمقربون منه ولكن لينفذ سياسته، فقد بادر إلى جعل اللغة العربية هى اللغة الأساسية فى المدارس بدلا من اللغة الإنكليزية، ووقف بحزم أمام كل تدخل إنكليزى فى سياسة التعليم المصرى.

واصطدم سعد بالإنكليز وبالأسرة الخديوية الحاكمة، وكتب مصطفى كامل

الزعيم الشاب وقتها، مؤيداً سعد زغلول «إن ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول يحملهم على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل».

وعين عام ١٩١٠، وزيراً للحقانية (العدل) وكثرت الخلافات بينه وبين الإنكليز والخديوى، فقدم استقالته وقبلت فوراً.

ووتوجه سعد إلى العمل السياسى الشعبى، فرشح نفسه مستقلاً فى انتخابات الجمعية التشريعية، وحقق فوزاً ساحقًا مكتسحًا أمامه جميع المرشحين، وانتخبه النواب وكيلا للجمعية التشريعية، وبدأ يكتب فى الأهرام مقالات «نارية» عن سلطة الشعب، وإرادته الحرة فى اختيار من يمثلونه وبدأ يهاجم سياسة الحكومة بعنف وقسوة، لكن الحكومة كانت تنتصر عند التصويت على أى قرار لأنها هى التى كانت تعين نصف النواب. قال له صديق ذات يوم، إنه يتعب نفسه فى الجمعية التشريعية بلا جدوى، فالأعضاء فى جانب

أم المصريين

تزوج سعد زغلول سنة ١٨٩٦ بالسيدة «صفية»، كريمة مصطفى فهمى باشا، رئيس الوزراء، آنذاك والتى لقبت لاحقًا بـ«أم المصريين». وقد لعبت صفية دوراً مهمًا فى حياة سعد زغلول، وفى تاريخ المصريين وقتئذ، وقد ظهرت شجاعتها واضحة بعد نفى سعد فى المرتين الأولى والثانية، فكانت على اتصال دائم بأعضاء «الوفد» المصرى، تشترك معهم فى اجتماعاتهم، وتستقبل الوفود السياسية والشعبية، وتخطب فيهم داعية الشعب إلى التمسك بمطالبه، وكان لخطبها، ومواقفها وقع عظيم فى نفوس الشعب رجالاً ونساء، حتى أيقن المحتل الإنكليزى وقتها أن التأثير الذى تحدثه صفية زغلول لا يقل عن التأثير الذى يحدثه سعد باشا نفسه، فاستقر قرارهم على أن يأذنوا لها باللحاق به فى منفاه، وفطنت السيدة «صفية» إلى ما يدبره الإنكليز فقالت لهم حينما أبلغوها بقرارهم: «لقد استودعت زوجى يدى الله وسابقى هنا أؤدى الواجب نحو وطنى إلى أن يعود». وبخلاف اشتراكها مع زعماء مصر فى النضال من أجل الحرية، ناضلت أيضًا مع طليعة نساء مصر أمثال هدى شعراوى بهدف تحرير المرأة المصرية، من القيود التى كبلتها طويلا، خاصة أن النساء شاركن بفاعلية فى المظاهرات التى عمت الوطن كله فى عام ١٩١٩.

الحكومة، فرد عليه سعد قائلاً: «إننى لا أخاطب الجمعية التشريعية، بل أخاطب الأمة من خلالها. ولا أحدث الحاضر، بل أحدث المستقبل».

المواجهة الساخنة

وصدر قرار بحل الجمعية التشريعية بعد خمسة شهور فقط، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، ليعيش فى ظلامها كل المصريين، وأصبحت مدينة القاهرة تعج بجنود الاحتلال، وصارت مصر قاعدة إنكليزية تخرج منها الحملات إلى الشرق الأدنى، ويساق العمال المصريون إلى الجبهة يحفرون الخنادق، ويتساقطون صرعى، واستولى المحتل على كل ما له قيمة فى مصر لخدمة جنوده، فى جبهات القتال، حتى دجاج الفلاحين وماشيتهم، وأعلنت إنكلترا الحماية على مصر، وأسقطت السيادة التركية، وتولى الملك فؤاد عرش مصر، وبدأ سعد فى مقاومة الاحتلال الصريح، ومنعت الحكومة نشر مقالاته فى الصحف فصار يطبعها فى منشورات، ويوزعها على الناس فى أنحاء القطر المصرى، وألف سعد زغلول «الوفد» برئاسته للسعى لاستقلال مصر، وحتى يكون عمله رسميًا وديمقراطيًا حصل على توكيلات كتابية من شتى أنحاء البلاد، وبدأت المقاومة تكشر عن أنيابها.

المنفى الأول

وفى الساعة الخامسة من عصر يوم ٨ مارس سنة ١٩١٩ أحاط الجنود الإنكليز بيت سعد زغلول، وقبضوا عليه، وعلى ثلاثة من أبرز الأعضاء مركزاً فى الوفد، وأرسلوهم منفيين إلى «مالطة» واندلعت ثورة سنة ١٩١٩ لتكون أول ثورة شعبية فى العالم بعد الحرب العالمية الأولى وقال بسببها أحد وزراء بريطانيا: «يجب التخلص من سعد.. يجب التخلص من سعد». لكن بريطانيا اضطرت تحت الضغط الشعبى، للإفراج عن سعد، وتنتهى الثورة بالنجاح النسبى.

ووجهت السلطات الإنكليزية يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ إنذاراً إلى سعد

زغلول وزملائه، من أعضاء الوفد ليكفوا عن أى نشاط سياسى مثل إلقاء الخطب أو الكتابة فى الصحف والمنشورات وطلبت منهم أن يغادروا القاهرة إلى قراهم فى الريف.

المنفى الثانى

ورفض سعد الإنذار قائلاً: «سأبقى فى القاهرة، ولتفعل القوة بنا ما تشاء». وألقى القبض عليه، وسيق مع أصحابه منفيّاً إلى «عدن» ثم إلى جزيرة «سيشيل»، التى نقل منها بعد أن ساءت صحته إلى «جبل طارق».

ويقول أحمد بهاء الدين: «ماذا فعل الشعب فى مصر وهو يرى زعيمه فى قبضة المحتل بعيداً عن وطنه؟ بدأ بالمقاومة السلبية، فليس لعامل مصرى أن يخدم إنكليزيًا، ولا لمصرى أن يستخدم إنكليزيًا، فلا يوكل محاميًا إنكليزيًا ولا يستشير طبيباً إنكليزيًا، وعلى الأهالى أن يتجاهلوا وجود الموظفين الإنكليز فى المصالح، وأن يرفعوا أعمالهم إلى الموظفين المصريين فقط، وعلى المحامين المصريين أن يعملوا على فض المنازعات أمام قضاة إنكليز فى المحاكم بالطرق الودية، وعلى الموظفين الخاضعين لرؤساء إنكليز أن ألا يتلقوا منهم الأوامر، ولا ينفذوا تعليماتهم.. إلخ. كما كان على رأس بنود المقاومة السلبية امتناع أى سياسى مصرى عن تشكيل الوزارة مادام الوضع الحاضر قائمًا، وليحكم الإنكليز بالقوة السافرة إذا شاؤوا. وعلى المصريين استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية، فيقاطعون البنوك الإنكليزية، والبضائع الإنكليزية، وعلى المسافر المصرى ألا يستعمل البواخر الإنكليزية، وعلى العمال أن يمتنعوا عن شحن أو تفريغ السفن، أو البضائع الإنكليزية، ولا يتعامل مع شركات التأمين الإنكليزية.. إلخ.

رئاسة الوزارة

أدركت بريطانيا أن مقاومة هذا الشعب ضرب من المستحيلات. فأرادت أن تلتف حول الثورة، فأعلنت فى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ انتهاء الحماية البريطانية

على مصر، والاعتراف بها دولة مستقلة ذات سيادة، ونودى بفؤاد ملكًا على مصر، وتألفت فى ١٣ إبريل سنة ١٩٢٢ لجنة لوضع دستور للبلاد. وأفرج عن سعد زغلول وعاد إلى مصر لتستقبله الجماهير استقبالاً لم يسبق له مثيل، ووقع الملك فؤاد مرسومًا بتكليف سعد زغلول بتشكيل الوزارة، ورد سعد على خطاب الملك بخطاب يؤكد فيه أنه آت بإرادة الأمة وحدها. وشكل سعد أول وزارة شعبية برلمانية فى ١٥ مارس عام ١٩٢٤.

وأطلق الرصاص على سعد زغلول يوم ١٢ يوليو سنة ١٩٢٤ خلال وجوده فى «محطة مصر»، ولحقت به إصابات طفيفة ودخل المستشفى ليخرج فى ١٧ يوليو، ولكن التطورات كانت ترتب شيئًا آخر فقد قام أحد الوطنيين باغتيال السير «لى ستاكث» القائد العام الإنكليزى، وحاكم السودان فى شارع القصر العينى، ويتهم سعد بأنه مسؤول عن الاغتيال نتيجة للتحريض الذى مارسته وزارته ضد الإنكليز، وقدم سعد استقالته لكنه لم يترك ساحة النضال وانتخب سنة ١٩٢٥ رئيسًا لمجلس النواب الجديد، ثم نائبًا لرئيس مجلس النواب الائتلافى عام ١٩٢٦.

ولم تهدأ حماسة سعد زغلول على الرغم من تقدمه فى السن، واستمر فى نضاله بحماسة الشباب، ولكن الأمراض تكالبت عليه.

وأسلم الروح فى الساعة العاشرة مساء ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، وهو يردد: «أنا انتهيت.. أنا انتهيت».